المعاجم المصطلحية الحديثة:
أي فائدة لها في تعريب العلوم

د. عبد الوهاب التازي سعود(*)

تظهر أهمّية اللغة في آدابها وعلومها وإنجازاتها في مختلف ميادين حقول المعرفة؛ ويبدو هذا جليا في معاجمها وموسوعاتها التي تقدّم الصورة الواضحة لنموّها وشموليتها في وصف الواقع المعقّد والمتطوّر، مما يعكس اتصالها الوثيق وتعاملها مع كلّ أنواع المعارف والعلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، ويقدّم مرآة صادقة لمدى استيعابها للقديم والجديد، ومقدار مواجهتها للتحديات العلمية والثقافية في كلّ الميادين: فاللغة تعبّر عن العالم وتحتويه وتحيط به، بل تمتلكه وتوضّحه وتقرّبه إلى الناس بمعاجمها وموسوعاتها التي تحتوي على أكبر عدد من الألفاظ والمصطلحات، تلقي بها الأضواء على كل العلوم والفنون، ما هو منها تراثي وما هو جديد، وهذه شمولية تؤمّن لها مسحاً دقيقاً للمعارف والثقافات، لغةً وفكراً وأدباً وفلسفةً وعلماً وفناً.

والمصطلح العلمي يُوضع — كما لا يخفى- للتعبير عما جدّ من المفاهيم في مختلف العلوم، وما حققه العلماء من اكتشافات واختراعات وفتوح علمية في شتى الميادين؛ وذلك لإمداد مستعملي اللغة والدارسين الباحثين منهم على الخصوص بالوسائل والآليات الحديثة ليستطيعوا متابعة التقدّم العلمي والمشاركة فيه والعمـــل على توطينه ببلادهم ولغتهم وثقافتهم.

وقد برهنت اللغة العربية خلال تاريخها الطويل على قدرتها الفائقة لإيجاد المصطلحات المطلوبة وتوليدها بشتى الوسائل والطرق المتوافرة لديها من اشتقاق، ومجاز، وترجمة، وتعريب، ونحت، واقتراض، وغيرها. فقد كانت لعلماء العرب جهود جبارة في هذا المجال تتابعت وقويت خلال القرون، فكانت المعاجم اللغوية العامة بقسميها: معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني، ومعها المعاجم التواردية الموضوعية التجانسية، وكذلك المعاجم الموسوعية التي لا تكتفي بالمعنى اللغوي للألفاظ بل يوجد فيها، أيضاً، كلّ ما يرتبط باللفظ من معلومات ومصادر ودراسات علمية خاصة، حتى صارت السجل الملخّص المركّز الشاهد على ما للأمة من آثار في العلم والحضارة عبر التاريخ.

وكانت، أيضاً، المعاجم التقنية الخاصة بالمصطلحات الدائرة بين أرباب التخصصات والمهن: في القرآن الكريم والحديث والتصوف... والطب والحيوان وغيرها كثير. ولم يتخلّف علماء العربية في العصر الحديث — على الجملة- عن سابقيهم في هذا الميدان... فقد بذلوا جهوداً جبارة تجعل اللغة العربية تساير العصر

(*) متخصص في الترجمة واللسانيات، عميد سابق بكلية الآداب بفاس.

وتطوّر العلوم لتستوعب المفاهيم الجديدة بسهولة فائقة، فبحثوا وألفوا المعاجم التي تقدّم المصطلحات اللازمة في مختلف المجالات العلمية.

ويجب الاعتراف بأن الجهود المبذولة — وإن كانت مشكورة - لم تؤت النتائج المرجوة منها، فقد تعددت المصطلحات للمفهوم الواحد؛ وكان بعضها نابياً ثقيلاً على السمع صار يُتفكّه به، بل يتّخذ مطيّة ووسيلة للاستدلال على أن اللغة العربية لا تصلح لتلقين العلوم الحديثة نتيجة لعدم قدرتها على التكيّف لتبليغ الحقائق العلمية الحديثة وتحقيق تواصل متقدّم محكم مُستَوف ومستوعب للتطور العلمي والحضاري الحديث وللدخول في معمعة العولمة الكاسحة وثقافتها التكنولوجية ذات الخصائص التي لا تتوافق — كما زعموا- مع طبيعة لغتنا.

وعلى كل، فهناك عدد مهم من المعاجم والمصطلحات الحديثة التي وضعت خلال القرن العشرين واستعمل بعضها واستمر وذاع، كما في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية مثلاً؛ إلاّ أنّ تدريس العلوم الدقيقة، في الجامعات العربية، استمر باللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية بحجة مسايرة الركب ومواكبة تقدم العلوم. وفي هذا إخلال بالهوية الوطنية وخيانة للغة القومية، وأنانية وتكاسل وجهل بحقائق العلم وأصول المعرفة الإنسانية من لدن الذين اتخذوا هذا القرار الذي من نتائجه الخطيرة:

- إيجاد نخبة قليلة متعلمة متطورة، مهاجرةً علمياً وثقافياً ومستلبَةً فكرياً.
- إبقاء سواد الأمة بعيداً عن الفكر العلمي والمعرفة الرفيعة، لأنّ علماءنا لا يستعملون اللغة القومية بل يهجرونها إلى اللغة الأجنبية، بدعوى مستواها العلمي الرفيع، بينما كان يمكن —لو توافرت النيات الحسنة والهمم الدراكة والحرص على تطوير اللغة العربية وتأهيلها — أن يستعملوا لغتين: لغة أجنبية للاستعانة بها، واكتشاف العالم بواسطتها، واللغة القومية التي ستتابع حينذاك — كغيرها من اللغات- مسيرتها واتساعها وشموليتها وتطورها بواسطتهم وتحت نظرهم وبفعلهم الرصين وبحوثهم المتواصلة، علماً أنّ الإبداع في اللغة الأجنبية جدّ صعب، لأنّ الأجنبي الناطق بها لا يتمثلها ولا يندمج فيها إلاّ نادراً بعدما ينسلخ من ذاتيته ليعايش الآخرين ويتقمص كل مظاهر حياتهم ويستعيرَ كل تصوراتهم، بل محتوى مخيلتهم العميقة؛ لذلك نرى أنه يلزم على المسؤولين في العالم العربي أن يعيدوا النظر في هذا القرار الخطير لِمَا له من نتائج وخيمة على الثقافة الوطنية التي ضعفت وهزلت ولم تعد مسايرة لتطور العصر، وأن يعملوا على إيجاد حد لما نتج عنه من إهمال للغة العربية التي همشت وأقصيت من مراكز البحث العلمي؛ ويكون هذا بالحرص على استعمالها في نفس الوقت مع اللغة الأجنبية التي يستعان بها، وإلزام المعنيين بأن ينشروا بها نتائج بحوثهم إلى جانب اللغة الأجنبية، وعدم الإنفاق على أي مشروع لا يتقيد بهذا الشرط مهما كانت أهميته؛ عند ذاك سنقول إن لنا علماء يشاركون في الحركة العلمية العامة، ويقومون في نفس الوقت بدورهم في تثقيف شعوبهم وتعليمها ورفع مستواها المعرفي والثقافي والفني، فهم مسؤولون عن ضعفه وتدنيه بهجر اللغة التي يعرفها الجميع، فلا يبقى

العلم محصوراً في طبقة صغيرة من الناس تستغله لمصالحها، وتحرم منه الآخرين الذين انتدبوهم وأنفقوا عليهم ليكونوا روّاداً مخلصين لمجتمعهم ولغتهم. وبذلك ستعود للمعاجم المصطلحية الموجودة أهميتها، وستعرف التطور والحياة بعد جمود، والاستعمال والتداول اللذين لا تحيا بدونهما لغة.

وحتى لا نقع من جديد في مثل المؤاخذات والانتقادات السابقة، يجب أن يشارك في وضع المصطلح العلمي:

- العالم المبدع، المكتشف، المخترع.
- العالم اللغوي الذي يعرف اللغة وتراثها لإخضاع المصطلح الموضوع أو المعرّب لقواعد اللغة ومقاييسها، مع اعتبار آراء المستعملين حتى لا يقع منه النفور والاستهجان. وكذلك مع اعتبار الشروط العادية التي تُراعى في هذا المجال، ويتم ذلك بما يلي :
- وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد.
- تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد.
- المحافظة على المصطلحات العلمية العربية القديمة إن كانت موجودة، ومسايرة المنهج العلمي في وضعها.
- إعطاء الأسبقية للكلمة السهلة النطق والتي تسمح بالاشتقاق والتوليد.
- تفضيل الألفاظ الواضحة على الغامضة.
- تفضيل الكلمات العربية الفصيحة على الأعجمية المعربة.

المعاجم والموسوعات إذن، هي خير معيار للمستوى المعرفي الذي تبلغه الأمة الناطقة بلغتها، وما أحوج لغتنا إليها لتتابع مسيرتها التاريخية الظافرة، وما أحوجنا إلى علماء باحثين يعرفون اللغات الأجنبية الحديثة ويستعملونها في بحوثهم وأعمالهم العلمية، دون أن يهجروا لغتهم التي لن يكُون لهم ذكر إلاّ بها؛ فهي التي ستُخلّد أعمالهم لِتَعْرفهم الأجيال القادمة وتحمد لهم جهودَهُم في العلم والمعرفة.